جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

النخلة في شعر محمد الثبيتي
دراسة دلالية

إعداد

د / عبدالعزيز بن حمود البلوي

أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية التربية والآداب - جامعة تبوك

(العدد السادس والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. مايو)

(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

النخلة في شعر محمد الثبيتي دراسة دلالية

عبدالعزيز بن حمود البلوي

قسم الأدب والنقد، كلية التربية والآداب، جامعة تبوك، المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني: a.albalawi@ut.edu.sa

الملخص:

هذا البحث الموجز يتتبع ذكر النخلة في شعر محمد الثبيتي تتبعا دلاليا، ويعتمد على منهج تحليلي، حيث يستدل على المعنى الذي يقصده الشاعر من ذكر النخلة، بحسب الجو النفسي للقصيدة، وبحسب المذهب الأدبي للشاعر، فكثير من الإيحاءات مستنبطة من دلالة النخلة في الحياة الإنسانية، وأهمية هذه الشجرة في موطن الشاعر، إضافة إلى البيئة الأدبية والمدرسة الفنية التي يتبعها الشاعر في قصائده، وقد كثر ذكر النخلة في شعر الثبيتي في ديوان (موقف الرمال)، الذي تغلب عليه روح الصحراء، وهو موطن النخلة في الغالب ، وقل ذكر النخل في دواوينه الأخرى، ومن منطلق اهتمام الأدباء بهذه الشجرة التي لا تحصى فوائدها، شجرةٌ لا تزال خضراءَ في الشتاء والصيف، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وأنها نافعة كنفع المؤمن تماما في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها، ومن عناية الأدباء بدلالاتها في شعر الصحراء (الرمال) استنبط البحث دلالات النخيل في شعر الثبيتي، وتلخصت هذه الدلالات في : الدلالة الحضارية البيئية، والدلالة الوجدانية، والدلالة التاريخية.

قامت الدراسة في توصيف النخلة وأهميتها على الاستعانة ببحوث عن النخل في الأدب، حيث ذكرت الأهمية الحضارية والتاريخية لشجرة النخيل، ثم دعمت بنصوص من هذه الدارسات.

الكلمات المفتاحية: النخلة، الشعر، محمد الثبيتي، دراسة، دلالية.

The Palm Tree in the Poetry of Muhammad Al-Thubaiti: A Semantic Study

Abdulaziz Bin Hamoud Al-Balawi
Department of Literature and Criticism, College of Education and Arts, Tabuk University, Saudi Arabia.
Email: a.albalawi@ut.edu.sa

Abstract:
This brief research semantically traces the mentioning of the palm tree in the poetry of Muhammad al-Thubaiti, adopting an analytical approach, as the poet's intended meaning is inferred from the mentioning of the palm tree, according to the psychological atmosphere of the poem, and according to the literary doctrine of the poet. Many of the revelations are derived from the significance of the palm tree in human life, the importance of this tree in the poet's home, and the literary environment and the artistic school that the poet follows in his poems. The palm tree was mentioned a lot in Al-Thubaiti's poetry in the Diwan of (The Sands Stand), which was dominated by the spirit of the desert, which is in turn the home of the palm tree, yet the palm tree was mentioned less in his other collections. Based on the writers' interest in this tree – whose benefits are innumerable; a tree that is still green in winter and summer, yields its fruit every time with the permission of its Lord, and that it is as beneficial as the benefit of the believer in terms of its abundance of goodness, the permanence of its shade and the goodness of its fruits – and stemming from the writers' care with its indications in the poetry of the desert (Al-Rimal), the research came out with the implications of the palm tree in Al-Thubaiti's poetry, and these implications were summarized as: the environmental cultural implications, the emotional implications, and the historical implications. In describing the palm tree and its importance, the study benefited from previous studies on palm trees in the literature, where they mentioned the cultural and historical importance of the palm tree, and the research assumptions were supported with texts from these studies.

Keywords: Palm tree, Poetry, Muhammad Al-Thubaiti, Study, Semantic.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد حظيت الطبيعة بمظاهرها المتعددة باهتمام الشعراء قديما وحديثا، وكثر الحديث عنها في أشعارهم، وتمثلوا هذه الظواهر –الأرضية منها والسماوية– بصورة لافتة للنظر، كالأشجار والجبال والشمس والقمر وغيرها، وعلى رأس هذه المظاهر تطالعنا النخلة بشموخها وعموم نفعها ودوامه لتحوز قصب السبق بين الأشجار عامة على ألسنة الشعراء.

وقد لفت انتباهي وأنا أطالع شعر الشاعر محمد الثبيتي كثرة حديثه عن النخلة، وتعدد دورانها في أغراضه المختلفة بدلالات متعددة؛ مما أغراني بدراسة هذا الموضوع تحت عنوان(

النخلة في شعر محمد الثبيتي دراسة دلالية–).

ويرمي هذا البحث إلى بيان الدلالات المختلفة للنخلة في شعر محمد الثبيتي، وتسليط الضوء عليها، وبراعة استعمال الشاعر لها.

وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التحليلي للدلالة على المعنى الذي يقصده الشاعر من ذكر النخلة، بحسب الجو النفسي للقصيدة، وبحسب المذهب الأدبي للشاعر.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة وبعض الفهارس.

أمـا المقدمـة، فقد عرضت فيها بواعث اختيار الموضوع وطريقة السير في دراسته.

التمهيد : وقد جاء حول التعريف بالشاعر.

المبحث الأول: أهمية النخلة في الحضارات الإنسانية.

المبحث الثاني: الدلالة الوجدانية للنخلة.

المبحث الثالث: الدلالة التاريخية للنخلة.

المبحث الرابع: الدلالة الحضارية البيئية للنخلة.

الخاتمة: عرضت فيها أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة.

ثم ثبت بالمصادر والمراجع والموضوعات.

والله أسأل أن يرزقنا التوفيق والسداد والقبول، إنه قريب مجيب.

تمهيد

التعريف بالشاعر[1]

الشاعر محمد بن عواض الثبيتي(١٣٧١-١٤٣٣هـ/ ١٩٥٢-٢٠١٠م) واحد من أبرز الشعراء السعوديين في العصر الحديث، ولد في الطائف، وقضى سنوات تعليمه الأولى بها، ثم التحق بجامعة الملك عبد العزيز بجدة عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، وحصل على الشهادة الجامعية في الاجتماع ، عمل في التدريس عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م،ثم عمل في إدارة التعليم بمكة المكرمة.

يعتبر الثبيتي أحد دعاة التجديد في القصيدة السعودية الحديثة، وقد عمل على تأصيل سمات التجديد في قصائده، وله أربعة دواوين هي على الترتيب (عاشقة الزمن الوردي)، (الأعمال الشعرية الكاملة)، (تهجيت حلما تهيجت وهما)، (التضاريس)، وقد منح جائزة اللوتس في الإبداع عام ١٩٩١م عن ديوانه الأخير(التضاريس).

كما يعد الثبيتي أبرز شعراء جيله من حيث قوة الملكة الشعرية، وإدراك التجديد الذي يسير عليه، كما يمتاز بصفاء الشاعرية، وقد استطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحا باهرا وسبقا ملحوظا في مسيرته الشعرية، كما أحدث تغييرا في مسار الشعر من خلال إيثار وحدة التفعيلة، واختلاف الرؤية للشعر والحياة، وتلقي مذاهب الشعرية الجديدة التي علا صوتها في البلدان العربية.

---

١ – ينظر في هذه الترجمة: معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية، الدائرة للإعلام، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، دراسات في الشعر السعودي المعاصر، فاطمة الوهيبي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، وتوظيف التراث في الشعر السعودي المعاصر، أشجان الهندي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

وقد حاول الثبيتي مع عدد من شعراء جيله استحضار الإطار المحلي برموزه الثقافية، وأقاموا حوارا بين الشكل الموروث(التناظري) والشكل التفعيلي، دون تجاوز القيمة الإيقاعية أو التفريط فيها.

ولأهمية شعره وإسهاماته ومكانته بين الشعراء كان شعره موضع الاهتمام من بعض الباحثين وشداة الأدب[١] في المملكة العربية السعودية.

توفي الثبيتي سنة١٤٣٣هـ/٢٠١٠م بعد معاناة مع المرض أدى إلى انقطاعه عن المشهد الثقافي فترة من الزمن.

١ – سجلت الباحثة/ منى المالكي رسالة علمية في جامعة الطائف بعنوان(السردية الشعرية في الشعر العربي الحديث: أمل دنقل ومحمد الثبيتي أنموذجا).

المبحث الأول

أهمية النخلة في الحضارات الإنسانية

شجرة النخيل من أهم الأشجار التي عرفتها البشرية، وتعلق بها الإنسان في البيئة العربية، خاصة في جزيرة العرب التي ينتمي إليها الشاعر، غير أن أهمية النخلة تجاوزت بلاد العرب إلى حضارات أخرى، واكتسبت أهمية حياتية كبرى حتى ارتبطت بالأديان والمقدسات حيث (تمّثل الشجرة أنموذجا أعلى في الفكر الإنساني على امتداد تاريخه، فهي لم تفارق أيا من الأديان القديمة والأساطير والعبادات والمعبودات جميعا في كثير من الثقافات. وهي حاضرة في واقع الإنسان، كل إنسان، موضوعا غذائيا وبيئيا وزراعيا وعلميا، وثقافيا ودينيا وأسطوريا، فلا يكاد يخلو مجال ما من الاّتصال بها، بصورة من الصور. ولعلّ قصة الخلق الأولى تثبت حضور الشجرة حضوراً فاعلاً في حياة الإنسان في الجّنة الأولى حيث التوق إلى الخلود فيها، فهي طعامه هناك، وبعضها حرام عليه، لكّنه آثر أن يجرب فاقترف الإثم؛ فكشفت الشجرة عن عورته، فلجأ إلى أوراقها لتغطية تلك العورة. والشجرة باقية على امتداد وجود الإنسان في الدنيا والآخرة، فعلاوةً على حضورها البارز في حياته الدنيا، نجدها أبرز ما يوعد به في الآخرة، فليست الجّنة في حقيقة أمرها إلاّ تجليات عديدة من الخيرات، في أشجار من النخيل والأعناب والرمان وغيرها من صنوف الفاكهة وأنواعها، المكتنزة بها الجّنات –كثيرة الورود في القرآن الكريم– التي تجري من تحتها الأنهار.)[1]

١ – الشجرة ودلالاتها ورموزها لدى ابن عربي، مجلة جامعة دمشق، العدد ٢، ٢٠١٢م مجلد ٢٨، ص ٧٩

وليس أدل على أهميتها ونفعها من حديث النبي ﷺ ، وقد سأل أصحابه رضوان الله عليهم فقال في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما: « عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ» فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»(١)

وفيه: فَضْلُ النَّخْلِ على سائر الشجر وأنها كلها خير ونفع وأنها شبيهة بالمسلم النافع الذي يرجى خيره ويؤمن شره كلُّها مَنافعُ وخَير كما المسلم الحق.

ولشرفها كانت معجزة من معجزات النبي ﷺ وقد بكت يوما لما فارقها النبي ﷺ : وصَاحَتِ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، فعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى المِنْبَرِ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ. قَالَ: «كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا» (٢)

وثمرها مفيد نافع وصفه الله للسيدة مريم ابنة عمران، فقال: (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) مريم(٢٥).

(١)صحيح البخاري (١/ ٢٢))،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٢) صحيح البخاري(٤/ ١٩٥).

وهو طعام للفقير وحلوى للغني قال أحمد شوقي:

طَعامُ الفَقيرِ وَحَلوى الغَنِيّ ... وَزادُ المُسافِرِ وَالمُغتَرِب[1]

تظهر أهمية النخلة في الحضارات القديمة خاصة في حضارة الفراعنة في مصر القديمة، ففي وصف لأحد المعالم الحضارية الفرعونية، وهو (المتنزه العظيم الذي أنشأه تحتمس أيضاً والذي يضم طائفة من العمد العارية الضخمة. وأعظم من هذا كله البهو الأكبر ذو السقف العظيم المقام على أعمدة ضخمة تبلغ عدتها مائة وأربعين، متقاربة بعضها من بعض لتقي من فيها حر الشمس اللافح وتمثل في أعلاها رؤوس النخل منحوتة في الحجارة)[2] وفي عموم القول فإن الإنسان قد اهتم بالنخلة اهتمامًا مطلقًا، لأسباب كثيرة تتعلق بالحياة نفسها، والمناطق التي يكثر فيها النخل، (هناك علاقة وطيدة بين النَّخلة والإنسان عبر مرور الأزمان، هذه العلاقة عزَّزها التَّاريخ الإنساني. فالإنسان بحاجة ماسة إلى النَّخلة، ذلك أنَّ كل جزء في النَّخلة له فوائد عظيمة، ثمارها، ليفها ساقها، سعفها، جريدها، ناهيك عن المواد المختلفة التي تستخرج منها، فمن النَّخلة معيشة الإنسان أكله، وشربه، وعلف دوابه ، ومن موادها يصنع المستلزمات الضّرورية للحياة (سقف البيت، السَّرير، الكراسي، الطاولات، المظلاَّت، القِفاف، الأبواب والنَّوافذ...الخ. بل إنَّ النَّخلة تصرُّ على الارتباط بالإنسان في حياته وحتى مماته، ذلك أن جذوع النَّخل وسعفه تستعمل كمستلزمات أثناء دفن الميت)[3]

١- ديوان شوقي(١/٤٧) ت/ الدكتور/ أحمد محمد الحوفي- دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة.

٢ - قصة الحضارة (٢/ ٥٧)

٣ - النخلة بين الرمزية والتحول، د، صلاح باونة، مجلة دراسات، جامعة جيجل، الجزلئر يونيو ٢٠١٧م، ص ٨٨

هناك حضارات نشأت في بيئات جغرافية بعيدة عن مواطن النخل، لكن أهمية الشجرة وصلت تلك الحضارات، وهذا دليل على الأهمية العالمية للشجرة، ففي الحضارة الرومانية مثلا (انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق–من نقوش بارزة، وتماثيل صغيرة، ولعب، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك–حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي. وقد وجد الشيء الكثير من هذه في خرائب بمبي. وكانت قواصر الهياكل وطنفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل، ومثقفات وميازيب في صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة....)[١]

ما يدعم هذا الخبر السابق من اهتمام الروم بالنخل وهو ليس في بلادهم رواية أبي هلال العسكري التي نصها : (أخبرنا أبو أحمد عن الجلودي، عن الحرث بن إسماعيل، عن سهل بن محمد، عن علي بن محمد، عن أسلم الأزدي، عن يونس عن الشعبي، قال: كتب قيصر إلى عمر: إن رسلي أخبروني أن بأرضك شجرة كالرجل القائم، تفلق عن مثل آذان الحمر، ثم يصير مثل اللؤلؤ، ثم يعود كالزمرد الأخضر، ثم يصير كالياقوت الأحمر والأصفر، ثم يرطب فيكون كأطيب فالوذج اتخذ، ثم يجف فيكون عصمة للمقيم، وزاداً للمسافر، فإن كان رسلي صدقوني فهي الشجرة التي نبتت على مريم بنت عمران. فكتب عمر إليه: إن رسلك صدقوك، وهي شجرة مريم، فاتق الله ولا تتخذ عيسى إلهاً من دون الله)[٢]

١ – قصة الحضارة (١٠/ ٢٧١)

٢ – ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت (٢/ ٣٩)

المبحث الثاني
الدلالة الوجدانية للنخلة

وهو جانب مهم جدا، وموجود في الشعر القديم، فهناك القصة المشهورة لغربة عبد الرحمن الداخل في الغرب، فكانت النخلة ذات دلالة وجدانية، تذكره بموطنه في الشرق، فكان ذكرها في شعره، وذلك في قوله :

يَا نَخْلُ أَنْتِ فَرِيدَةٌ مِثْلِي . . . فِي الْأَرْضِ نَائِيَةً عَنْ اَلْأَهْلِ
تَبْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَمَّمَة . . . عَجْمَاء لَمْ تُجْبَل عَلَى جَبَلِي
وَلَوْ أَنَّهَا عَقَلَتْ إِذَا لَبَكَتْ . . . مَاءَ اَلْفُرَاتِ وَمَنْبَتِ اَلنَّخْلِ
لَكِنَّهَا حرمَتْ وَأَخْرَجَنِي . . . بُغْضِي بَنِي اَلْعَبَّاس عَنْ أَهْلِي

ولم تكن هذه الدلالة قاصرة على ظرف الغربة الذي كان يحيط بعبد الرحمن الداخل، بل تعدت إلى دلالة جماعية وثقافة اجتماعية عامة في البلاد العربية التي تنبت فيها النخلة، حتى صارت رمزا وطنيا وتاريخيا، وبذلك(تحوَّلت النَّخلة بحكم حضورها الإلزامي الطاَّغي في الذَّاكرة الجماعية لدى العرب والمسلمين، من نبتة إلى رمز إشعاعي، يدلُّ على الوطن، فأصبح الحديث عن النَّخلة بمعنى الحديث عن الوطن، وكلِّ ما يتعلق بالأمكنة الحميمة الأثيرة لدى الشَّاعر. فهذا – عبد الرَّحمن الدَّاخل– رغم ما كان ينعم به من عيش رغيد، وحياة ملؤها الجاه والسُّلطان والمال بالأندلس، إلاَّ أنَّه حينما رأى نخلة في تلك الدِّيار النَّائية، تذكَّر (الرُّصافة بالعراق) وعاودته ذكريات موطنه الأصلي بالمشرق، فغمره الحنين إلى مْنبتِ عزِّه ،ومرابَع صِباه، ومرتع أحلامه ،وأيّام أنسه مع أقرانه، فلم يتمالك نفسه وتدفَّق الشِّعر على لسانه .....)[1]

١ – النخلة بين الرمزية والتحول، د، صلاح باونة، مجلة دراسات، جامعة جيجل، ص٨٢٠

والحقيقة أن عبد الرحمن الداخل في هذا الخبر رأى نخلة برصافته في الأندلس، ولا يعني رصافة بغداد فالخبر في نفح الطيب : ومن شعر عبد الرحمن وقد رأى نخلة برصافته :

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلةٌ ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرّب والنّوى ... وطول اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأت بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي[1]

لكن هناك شاعر آخر صور الارتباط الوجداني بالنخل تصويرًا عميقًا، وهو الحسن بن هانئ، أبو نواس (ويرتبط أبو نواس بالنخل ارتباطًا وجدانيًّا، حتى ليتخيل أنه يسقي النخل بدموعه[2]، فيقول :

بَانُوا بِرُوحِي فَصِرْتُ وَقْفًا لَا بِي حَرَاكٌ وَلَا سُكُونُ
وَيَانِعُ اَلنَّخْلِ مِنْ دُمُوعِي يَعُمُّهَا سَائِحٌ معَينٌ

وإذا ما انتقلنا إلى شعر الثبيتى فسنجد أن للنخلة حضورا بارزا في أشعاره بصفة عامة، ففي قصيدة تحية لسيد البيد(واحد من أبرز أدباء ما يعرف بأدب الحداثة)، تظهر الدلالة الوجدانية للنخلة عند الثبيتي، ففي بعض الألفاظ تكون النخلة رمزا للخلود، (نخلة لا تموت)، ويظهر تمازج النخلة ونفس الشاعر، وتشبيه سيد البيد بالنخلة :

سَتَمُوتُ اَلنُّسُورُ اَلَّتِي وَشَمَتْ دَمَكَ اَلطِّفْلَ يَوْمًا
وَأَنْتَ اَلَّذِي فِي عُرُوقِ اَلثَّرَى نَخْلَةٌ لَا تَمُوتُ
مرَحَبًا سَيِّد اَلْبيد..
إِنَّا نَصبْنَاكَ فَوْقَ اَلْجُرُوحِ اَلْعَظِيمَةِ

---

١ – نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب (٣/ ٥٤)

٢ – صورة النخل في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صالح على الشتيوي، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، ٢٠٠٧م، ص ٢٧٦

حَتَّى تَكُونَ سَمَانَا وَصَحْرَاءَنَا[1]

حيث يؤكد الشاعر فناء كل شيء لكن ستظل فضائل سيد البيد خالدة عبر الأزمان خلود النخل الباسقات تزين كل مكان.

وقد شبهه الشاعر بالنخلة التي لا تموت، والوجه الخلود وطول المكث، وحذف الشاعر لأداة التشبيه والتقدير (أنت الذي في عروق الثرى كالنخلة) وحذف الأداة قرب الشبه بين الممدوح والنخلة، حيث عدم الفاصل بينهما.

وما أروع الصورة الاستعارية الرائعة في جعلة للثرى عروقا تنبض بفضائل الممدوح تمتد امتداد جذور النخل عبر الأديم دلالة الخلود والثبات.

وفي قصيدة موقف الرمال موقف الجناس، يظهر الامتزاج الوجداني بين خلود النخلة ورمزيتها للحياة، ويتضح الامتزاج أكثر حين يساوي الشاعر بين نفسه والنخلة، فتكون نفس الشاعر وكينونته البدوية مصاحبة لخلود النخيل، وعظمة تلك الشجرة في مجتمع الشاعر وفي نفسه، وفي هذا النص يتخيل القارئ صورة النخلة تخيلا عميقًا يجعل النص كأنه منظوم لأجل النخلة وحدها:

ضَمني،
ثم أوقفني في الرمال
ودعاني:
بميم وحاء وميم ودال
واستوى ساطعا في يقيني،
وقال :
أنت والنخل فرعان
.....

١ – ديوان موقف الرمال، الأعمال الكاملة، نادي حائل الأدبي، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٩

أنت والنخل صنوان
هذا الذي تدعيه النياشين
ذاك الذي تشتهيه البساتين
أنت والنخل طفلان
واحد يتردد بين الفصول
وثان يردد بين الفصول:
أصادق الشوارع
والرمل والمزارع
أصادق النخيل
أصادق المدينة [١]

وقد بدا امتزاج الشاعر بالنخل في أكثر من صورة تشبيهية تأخذ كل منها بمجامع الألباب حسنا وبهاء، فالصورة الأولى قوله: (أنت والنخل فرعان) حيث شبهه والنخل بفرعين لشجرة واحدة دلالة الامتزاج والوحدة، ولم يكتف الشاعر بجعلهما فرعين لشجرة واحدة وإنما جاءت الصورة الثانية دالة على وحدة الأصل وذلك قوله: (أنت والنخل صنوان) ، والصنوان: نخلتان أو أكثر في أصل واحد؛ مما يؤكد قوة الامتزاج والاتحاد بين الشاعر وبين النخل، ويتضح الامتزاج الوحداني أكثر وأكثر من خلال الصورة الثالثة(أنت والنخل طفلان) فهو يمتزج بها امتزاج الأطفال وتبادلهما أدوار اللعب واللهو البريء مما يشعر بقوة الامتزاج بين الشاعر والنخل، وقد حذف الشاعر أداة التشبيه ووجه الشبه وهو ما يسمى عند البلاغيين بالتشبيه البليغ ليدل على وحدة الشبه بينه وبين النخل وهو ما يؤكد قوة الامتزاج والارتباط بينه وبين النخل.

١ – ديوان موقف الرمال، الأعمال الكاملة، ص ١٢– ١٣

وبمعاودة التأمل في الأبيات نلحظ براعة الشاعر وقدرته على أن يبلغ بمعناه الذي يقصده إلى أعلى درجات الجودة والكمال حيث لم يكتف بصورة واحدة للتدليل على الامتزاج بينه وبين النخل، وإنما استقصى في التصوير بثلاث صور تشبيهية تآزرت كلها لبيان معنى واحد مما يدل على براعة الشاعر وقوة شاعريته.

ومن عمق الدلالة الوجدانية أن تكون النخلة رمزا أدبيا مثل غيرها من مظاهر الطبيعة، فتكون مظهرا مهما في مدرسة أدبية حديثة، هي مدرسة الرومانسية الحديثة، حين يمزج الشاعر إحساسه بالنخلة وما توقعه في نفسه (وتجد شعرية النخل في بنية الشعر الرومانسي تربط بين هموم الذات، وهموم الواقع في صورة مفارقة جمالية رومانسية، بين الذات الشعرية المتلاشية، وغلظة الواقع وجموده، نجد ذلك لدى الشاعر محمود عماد في قصيدته "نخلة"، حيث يتخذ من النخلة معادلًا جماليًّا لذاته الرومانسية المنعزلة، فيقول :

يا نخلة في منحنى نحيلة لا من ضنى
أتعرفين من أنا؟
إن استطعت فاقصري كأمس أو تأطري
وفي ملامحي انظري[1]

وقد تتجاوز الدلالة الوجدانية للنخلة المألوف والمقدس، عند الرومانسيين، وهذا ما ذكره إحسان عباس في حديثه عن الشاعر العراقي بدر شاكر السياب، الذي تجاوز حد الانجذاب إلى النخلة وعمق تأثيرها في نفسه (فإذا كان للمرض من أثر في موقفه من الألوهية، فهو أنه عاد به إلى معرفة الحد الذي لا يصح للإنسان أن يجاوزه في تصوره للإله، حتى وإن كان ثائرا شاكيا. ولولا المرض لما

١ – شعرية النخيل، ص ٩٥

تعرض هذا الجانب في السياب إلى مثل الاختبار العسير، فقد كانت راحته النفسية في عودته إلى " الروحية "، وكان من الممكن أن يظل مطمئنا في ذلك الحمى الآن؛ لأن السكينة فيه هي السكينة فيه، هي السكينة عينها التي تنبع من قلب الأم؛ وليس من المصادفات أن تصبح " النخلة " رمزا للإله في بعض لحظات المزج بين السكينتين – كما كانت دائما رمزا للأم (١) :

وأبصر الله على هيئة نخلة، ... كتاج نخلة يبيض في الظلام)[١]

في شعر الثبيتي ما يجعل النخلة رمزا شعريا ورومانسيا عميقًا، يكاد يبلغ درجة التقديس، فالنخلة عنده في هذا السياق تتجاوز الوصف المجرد لمنظر من مناظر الطبيعة المألوفة في بيئة الشاعر، فيخرج الوصف هنا من المباشرة والبساطة إلى تعميق الوصف، حتى تتجسد النخلة في صورة كائن مخاطب، يخاطبه الشاعر بأحاسيسه نحوه، وهو ما أعنيه بالرومانسية التي تتخذ من مشاهد الطبيعة ملجأً نفسيًّا، ومن ثم يأتي الوصف عميقًا ماورائيًّا، والكلمة التي تدل على أن الثبيتي بلغ بالنخلة الوصف الماورائي، كلمة (خرافي)، فهي لفظة تترك للملتقي أن يسرج خياله مع الشاعر لتأمل تلك الخرافة :

قال :

يا أيها النخل

يغتابك الشجر الهزيل

ويذمك الوتد الذليل

وتظل تسمو في فضاء الله

ذا طلع خرافي[٢]

١ – بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره (ص: ٣٧٥)

٢ – ديوان موقف الرمال، ص ١٥

وقد رسم الشاعر للنخل هنا صورة رائعة تتسم بالجلال والتقديس حين اعتمد على الخيال وجعل الشجر الهزيل يغتابه، والوتد الذليل يذمه؛ مما دعا الشاعر أن يناديه وينبهه في مطلع الأبيات(يا أيها النخل)، فيناديه بأداة البعد (يا) للإشارة إلى بعد منزلته ومكانته، واستعمال (ها) التنبيه ليأخذ حذره من هؤلاء الأعداء الوشاة، وفي آخر الأبيات يستحثه على مواصلة السمو ودوام الثمر والعطاء غير مكترث باغتياب الشجر وذم الوتد.

وفي قصيدة آيات لامرأة تضيء، يجعل من النخلة رمزا وجدانيا، عميقا، وهي رمزيته لعلاقة الحب والخطيئة، فهو هنا يجعل النخلة شاهدًا على تلك الخطيئة (انطفاء المرأة) :

حين تنطفئ امرأة في العراء
أرافقها للمدينة
أصلبها في جذوع النخيل
أقاسمها موعدا للرحيل
وأرسم دائرة من ضياء[1]

١ – ديوان التضاريس، ص ١٢٠

المبحث الثالث

الدلالة التاريخية للنخلة

ولا نعني بالتاريخ هنا حصر دلالة النخيل في اقترانه بحياة العرب في الصحراء، وغيرها من منابت النخيل مثل أرض الرافدين، لكن الدلالة التاريخية هنا تكون مشبعة بالروح الأدبية، وبعث الموروث الأدبي الذي تركه شعراء سابقون، فأثر في شعراء معاصرين، (تحول النخيل القديم إلى الواقع العربي المعاصر راسمًا أحرفًا للشعر، ونوافذ للرؤى، إن شعرية التناص، مع بنية الأشكال الجمالية السابقة للنخيل، تستقطب نصوصًا شعرية عديدة موغلة في القدم والترامي الجمالي، والدلالي معًا، إن الصورة الشعرية في "نوافذ النخيل" لفوزي عيسى، تشدنا إلى طلاقة الخيال الشعري المعاصر في تناصه الشعري التدامجي، مع الخبرات الشعرية والتصويرية القديمة للنخيل، بوصفه رؤية ورؤيا واستشرافًا)[١] مثل قوله :

أسعداني يا نخلتي حلوانِ وابكياني من ريب هذا الزمانِ

الدلالة التاريخية للنخلة في شعر الثبيتي تكاد تكون خفية، ولا تتضح إلا باستقراء بعض الرموز المخفية وراء الكلمات، فهو يستخدم ألفاظا تشير إلى تاريخ النخلة، وارتباطها بتاريخ المنطقة التي عاشت فيها، وأثر هذه الشجرة في تاريخ المنطقة، وتكاد الدلالة التاريخية هنا تلتبس بالدلالة الوجدانية لولا بعض الفروق الرمزية التي تفرق بين الوجدان والتاريخ، لأن التاريخ ارتباط بالبيئة المكانية الزمانية والموروث، فعند ذكر المكان والزمان، فإن الرمز والدلالة هنا يشيران إلى التاريخ بوضوح :

١ – شعرية النخيل وتجليات العقل الجمالي العربي، أيمن تعيلب، مجلة كلية الآداب، جامعة السويس، مارس ٢٠١٦م، ص ٩٠

قال :

يا أيها النخل

هل ترثي زمانك

أم مكانك

أم فؤادا بعد ماء الرقيتين عصاك[1]

.....

وانشق

عن

مطر

غمامي

للبائتين على الطوى

والناشرين لما انطوى

والناظرين

إلى

الأمام

للنخل للكثبان للشيح الشمالي[2]

والاستفهام الموجه إلى النخل(هل ترثي زمانك أم مكانك؟) يدل أيضا على طول مكث النخل وامتداده على مر التاريخ؛ بدليل أن الزمان والمكان قد اندثرا وذهبا وبقي النخل راثيا لهما.

غير أن هناك مفاتيح تكشف ما وراءها من دلالة تاريخية، وهي أوضح من الزمان والمكان، وذلك أن الشاعر يذكر بعض الشخصيات والأحداث، يشير بها

١ – ديوان موقف الرمال ص ١٩

٢ – ديوان موقف الرمال، ص ٢٩

إلى خلود النخلة وارتباط تاريخها الماضي بحاضرها، فهي الشجرة التي شهدت تلك الأحداث، وظلت قيمتها كما هي على الرغم من تعاقب السنين والدهور، فتكون النخلة هنا مثل السجل الذي يفتحه من يريد قراءة التاريخ : ففي قصيدة: « شهرزاد والرحيل» في أعماق الحلم يقول الثبيتي :

تحدث عني ملاعب قيس
وليلى
وكل التخوم التي عشقتها الغيوم
ورفت عليها دماء القبيلة
ويعشقك النخل
والذكريات بسقط اللوى
والكثيب الذي وسدته المنايا
كليبا[١]

فـ « ليلى»، وقيس، و« القبيلة» و« سقط اللوى» و« كليب» كلها رموز تاريخية، أراد بها الشاعر تعميق الدلالة التاريخية في نصه، وذكر الشاعر للنخل معها دلالة تاريخية أيضا على خلوده وارتباطه الكامل بالتاريخ والأحداث.

ومن الإشارات بالزمان والمكان أيضا قوله :

كانت عيناي مزارع نخل
ألقيت بها للريح
فضاع اليوم، وضاع الأمس[٢]

١ – ديوان تهيجت حلما تهجيب وهما، ص ١٤٣

٢ – ديوان عاشقة الزمن الوردي، ص٢٦٧

فاليوم والأمس هنا دلالة تاريخية تشير إلى إحباط في نفس الشاعر، وهو إحباط يمكن أن نرده إلى تأثير أحداث تاريخية في نفس الشاعر، وتأثير تلك الأحداث في حاضره، ثم جعل النخلة سجلا لتلك الأحداث الماضية والحاضرة.

وفي قصيدة الفرس يذكر التاريخ صراحة، على الرغم من أن النص يدل على عاطفة الحب، وهنا يمكن تفسير ذلك بأن الشاعر يربط تاريخ الحب بشجرة النخل، كما ذكر قيس وليلي :

عانقتها

فامتد صدري ساحلا مرا

تنوء به تواريخ النخيل[1]

والتعبير بتواريخ النخيل يضفي على الحب صفة الامتداد والخلود أيضا.

١ – ديوان التضاريس، ص ٧٨

المبحث الرابع
الدلالة الحضارية البيئية للنخلة

في هذا الجانب يقترن ذكر النخيل بذاكرة الطبيعة، والبيئة التي يعيش فيها الشاعر، فعندما يعبر الشاعر بالنخيل عن أي معنى شعري، فإنه يلجأ في كثير من الأحيان إلى تصوير بيئته التي أشبعت عينيه وعقله بصورة النخلة، فصارت ذاكرته مرجعية مهمة للطبيعة التي تؤثر في شعره، لذلك فإن السياب أكثر الشعراء المحدثين تجسيدا للدلالة لحضرية البيئية للنخلة، فهو من أرض العراق التي اشتهرت بنخيلها، وهو حين يعني امرأة في شعره فإنه يجعل صورة النخلة مصاحبة لتلك المرأة (وكانت صورة " هالة " ما تزال تعيش في قلبه، رمزا لكل ما يحب في الريف، ولهذا لم يكد يجد الفرصة سانحة في عطلة الشتاء (١٩٤٣) حتى خف إلى القرية، ولكن قصيدة " تنهدات " (١) تنبئ أنه لم يستطع أن يراها؟.. " إنها لن تأتي " ذلك ما قاله في التوطئة للقصيدة: أكان ذلك لأن فصل الشتاء حال دون قدومها أم لأن العهد قد انتهى؟ إنه يخبرنا في القصيدة أنها أصبحت نائية، حين يقول مخاطبا سعف النخيل:

من كنت أحذر أن تحجب طيفها ... عن ناظري نزلت بأبعد منزل
سيان عندي اليوم قفر موحش ... وظلال روض مستطاب المنهل

وعلينا ان نقدر أن هذا النأي كان مكانيا، وكان طارئا، ولعل من أسبابه أن الراعية لم تعد راعية، بعد أن مات القطيع، وسأل عنها فقيل له: إن المروج لن تحظى بعد بطلعتها الجميلة:

أحزنا على ما أصاب القطيع ... أليف الروابي اعتراك الألم؟)[١]

لا شك أن هناك تشابها كبيرا بين الثبيتي والسياب من حيث البيئة الجغرافية التي تكون فيها النخلة ذات مكانة عالية، فأرض الجزيرة العربية كأرض العراق من حيث تعظيم النخلة ولذلك فإن الثبيتي، اتخذ النخلة في بعض

١ – بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م (ص: ٥٠)

نصوصه رمزا حضاريا بيئيا، ففي قصيدة: «الطير» يجعل النخلة مشهدا طبيعيا يلازم النظر حتى في الليل حين تغيب الأضواء، ويرفع هنا مكانة النخلة بين النجوم:

قال الذي مسته نار الصالحين:

إذا رأيت البدر مكتملا بأحداق النساء

وقامت الجوزاء بين النخل سافرة

تدور الأرض دورتها الجديدة[1]

فعلى الرغم من أن المشهد في الأبيات يغلب عليه الطابع السماوي(البدر والجوزاء) إلا أن النخل يظل حاضرا ضمن أبرز لقطات المشهد؛ مما يدل على حضور النخلة في ذهن شاعرنا؛ فظلت حاضرة في معظم أشعاره.

وكذلك في قصيدة: «الصدى» يشير بإيجاز إلى ثقافة البدوي صاحب النخل الذي يعظم تلك الشجرة، حتى إنها تبادله الأحاسيس كالعاقل:

هذا التراب يمزق وجهي

وهذا النخيل يمد إلي يده[2]

وما أروع الصورة الاستعارية هنا حيث يصور النخل إنسانا يمد يده لإنقاذه مما فعله به التراب، فيصوره في صورة المنقذ الذي ينتشله من آلامه وأحزانه، ويأخذ بيده نحو السرور والسعادة والتغلب على آلام الزمان.

والإشارة إلى النخيل(وهذا النخيل) يجعله حاضرا ماثلا أمامنا وكأننا نرى النخيل وهو يأخذ بيد الشاعر، ويمد له يد العون والمساعدة؛ مما يبرز مكانته من بين مظاهر الطبيعة عند الشاعر.

ومن الإشارات الثقافية المهمة أيضا أن الثبيتي في بعض نصوصه، يعمد إلى جعل النخلة مشهدا شعريا، بحكم أن (الشاعر ابن بيئته)، وفي هذه الحالة تكون النخلة وحدة من مشهد طبيعي متعدد الملامح، فتكون بين الشمس والبحر

١ – ديوان موقف الرمال ، ص ٤٨

٢ – ديوان التضاريس، الأعمال الكاملة، ص، ٧٥

والهواء، وغير ذلك من مظاهر الطبيعة، ففي الحقول، تظهر هذه الدلالة الثقافية في هذا الجزء من القصيدة:

الحقول

الحقول

نخلة طوقت بجدائلها الماء والشمسَ

باحت بأسرار قامتها للهواء

تعرت على الشط.. ألقت ملامحها

في المحيط[١]

والحديث عن النخلة هنا استغرق الأبيات كلها، حيث يبين أثرها على الماء والشمس والهواء وعلى الشواطيء؛ مما يظهر تشابكها مع كل الظواهر البيئية حولها.

وفي بيت مفرد أيضا تظهر الدلالة الثقافية العميقة في أن الشاعر جعل من النخلة وغيرها من مشاهد الطبيعة في بيئته أنيسا يحدثه بما في نفسه :

فأي قوليّ أحلى عند سيدتي

ما قلت للنخل أم ما قلت للشيحِ[٢]

نبات الشيح من مظاهر الطبيعة في البادية، ولذلك كان ذكره مصاحبا لذكر النخلة رمزا ثقافيا ودلالة على ما يعرفه الشاعر من بيئته الجغرافية. وتقديم القول للنخل على القول للشيح اهتمام بشأن النخل، وإبراز لحسن حديثه إليه، ومكانته عنده.

وعند التأمل نلحظ أن الشاعر يتحدث للنخل والشيح وليس عنهما؛ مما يدل على قربهما منه فهو يتحدث إليهما؛ ليشاركانه أفراحه وأتراحه.

١– ديوان تهيجت حلما تهجيت وهما، ص ١٥٠

٢ – عاشقة الزمن الوردي، ص ٣٠١

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى خلاصة مهمة عن دلالات النخلة في شعر محمد الثبيتي، وهي أن الشاعر تأثر كثيرا ببيئة النخل، كغيره من الشعراء في البيئات المشابهة، ودلالة النخلة في شعره تقع في ثلاثة اتجاهات هي : الدلالة الوجدانية، وهي أعمق الدلالات للنخلة في شعره، ثم الدلالة التاريخية، وهي محكومة ببيئة المنطقة التي عاش فيها الشاعر (الجزيرة العربية)، وارتباط النخلة بالتاريخ الاجتماعي للمنطقة، ثم الدلالة الثقافية الحضارية، وهي ما يكون في ذهن الشاعر والمتلقي من معرفة بثقافة المنطقة عن النخلة وما يدور حولها، وقد تتداخل هذه الدلالات الثلاث في بعض الأحيان بسبب عمق الشاعرية وتداخل الرموز.

فهرس المصادر والمراجع

١- بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٤، ١٩٧٨م.

٢- توظيف التراث في الشعر السعودي المعاصر، أشجان الهندي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٣- دراسات في الشعر السعودي المعاصر، فاطمة الوهيبي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٤- ديوان التضاريس، الثبيتي، دار الانتشار

٥- ديوان تهيجت حلما تهيجت وهما، الثبيتي، دار الانتشار

٦- ديوان شوقي ت/ الدكتور/ أحمد محمد الحوفي- دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة.

٧- ديوان عاشقة الزمن الوردي، الثبيتي، دار الانتشار

٨- ديوان المعاني، أبو هلال العسكري، دار الجيل، بيروت

٩- ديوان موقف الرمال، الأعمال الكاملة، نادي حائل الأدبي، دار الانتشار العربي، بيروت، ٢٠٠٩.

١٠- السردية الشعرية في الشعر العربي الحديث: أمل دنقل ومحمد الثبيتي أنموذجا) ، منى المالكي رسالة علمية في جامعة الطائف.

١١-الشجرة ودلالاتها ورموزها لدى ابن عربي، مجلة جامعة دمشق، العدد ٢، ٢٠١٢م مجلد ٢٨

١٢-شعرية النخيل وتجليات العقل الجمالي العربي، أيمن تعيلب، مجلة كلية الآداب، جامعة السويس، مارس ٢٠١٦م.

١٣-صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.،

١٤-صورة النخل في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، صالح على الشتيوي، مجلة جامعة الملك سعود للآداب، ٢٠٠٧م.
١٥-قصة الحضارة، وول ديوانت، دار الجيل ، بيروت، ١٩٨٨
١٦-معجم الكتاب والمؤلفين في المملكة العربية السعودية، الدائرة للإعلام، الرياض، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
١٧-النخلة بين الرمزية والتحول، د، صلاح باونة، مجلة دراسات، جامعة جيجل، الجزائر يونيو ٢٠١٧م
١٨-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقريزي، ت إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص:	٦١٧
المقدمة:	٦١٩
التمهيد: التعريف بالشاعر.	٦٢١
المبحث الأول: أهمية النخلة في الحضارات الإنسانية.	٦٢٣
المبحث الثاني: الدلالة الوجدانية للنخلة.	٦٢٧
المبحث الثالث: الدلالة التاريخية للنخلة.	٦٣٤
المبحث الرابع: الدلالة الحضارية البيئية للنخلة.	٦٣٨
الخاتمة:	٦٤١
فهرس المصادر والمراجع:	٦٤٢
فهرس الموضوعات:	٦٤٤